المحاضرة السابعة:

الشعر الرومانسي الجزائري

إن الاتجاه الوجداني الرومانسي في الشعر الجزائري قد نشأ تحت ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية معينة، وأن نشأته هذه هي رد فعل تلقائي من قبل الشعراء للتعبير عن مشاعرهم إزاء هذه الظروف، غير أن هذه المؤثرات الخارجية لم تكن وحدها لتوجه الشعراء الجزائريين إلى هذا الاتجاه، فقد كان إلى جانبها تطور في مفهوم الشعر ووظيفته وعلاقته بالفرد والمجموع .

إن البداية الحقيقية لهذا الاتجاه في الشعر الجزائري الحديث، إنما ظهرت على يد رمضان حمود في أواسط العشرينيات، وقد اتضح بجلاء من خلال آرائه ونظرياته، ومحاولته تطبيق ذلك في شعره، وظل صوت رمضان متميزا منفردا في جو تطغى عليه المحافظة والتقليد.

ودعوة رمضان التجديدية ومفهومه للشعر ووظيفته لها جانبان جانب انتقاد المفهوم التقليدي المحافظ للشعر، وجانب الدعوة إلى مفهوم جديد وتصور معاصر من خلال منظور وجداني رومانسي، وبذلك كان رمضان يسير في الاتجاه الذي سار فيه الشعراء والنقاد والرومانسيون في أوروبا ولا سيما في فرنسا، وهو بناء نظريات شعرية جديدة على أنقاض نظريات كلاسيكية قديمة.

إن الشاعر الحقيقي في نظر رمضان، هو الذي يكون صورة صادقة لنفسه ولعصره، ولا ينقاد في إبداعه إلا لصوت ضميره، وليس معنى هذا أن يكون شاعرا ذاتيا أنانيا، يتغنى باهتماماته الشخصية وحدها، بل بالعكس من ذلك، إن الشاعر من هذا المنظور هو الذي يتحمل دور الريادة في الحياة والمجتمع في المجال السياسي والديني والاجتماعي.

انطلاقا من هذا المفهوم، ندد رمضان بالشعر الارستقراطي الموجه إلى الطبقة الخاصة، إن الشعر عنده يجب أن يتجه إلى الطبقة الشعبية أو أن يعبر عنهم، وهذه النظرة ارتبطت بلغة التوصيل، فدعا الشعراء إلى نبذ لغة امرئ القيس، وندد بالشعر الذي يعتمد التحذلق والتشدق بالألفاظ الضخمة ودعا إلى نبذ التكلف والتنطع في اللغة باستخدام لغة بسيطة يفهمها الناس جميعا.

وهكذا نلحظ أن مفهوم رمضان إلى الشعر مفهوم تجديدي، لا يختلف عن المفهوم الذي نجده عند شعراء مدرسة الديوان، أو شعراء المهجر الأمريكي، وهو لا يختلف قبل هذا وذاك عن مفهوم الرومانسيين الغربيين ولا سيما الفرنسيين الذين تأثر بهم رمضان تأثرا واضحا.

وحينما نقف على مفهوم الشعر عند رمضان ومفهومه عند ميخائيل فإننا نلحظ تشابها واضحا، يقول ميخائيل عن الشعر " هو غلبة النور على لظلمة، والحق على الباطل، هو ترنيمة البلبل، ونوح الورق، وخرير الماء، وقصف الرعد.

ويصل هذا التشابه إلى حد استخدام العبارات المتشابهة، كما نلمس ذلك في قول رمضان:

فهـذا خريـر المـاء شـعر مرتـل وهـذا غنـاء الحـب ينشـده الطيـر
وهذا زئير الأسد تحمي عرينها وهـذا صـفير الـريح ينطحـه الصـخر
وهذا قصيف الرعد في الجو ثائر وهـذا غـراب الليـل يطـرده الفجـر

إلى جانب رمضان حمود برز إلى الساحة الأدبية شاعران يتميزان بنظرة وجدانية رومانسية، واتضحت في شعرهما نغمة التغني بالألم الذاتي، وجعله مدارا للشعر واتضاحا قويا، وهما أحمد سحنون ومبارك جلواح العباسي، وهذان الشاعران وإن لم يتركا لنا نصوصا نقدية كما فعل رمضان، فإن إنتاجهما الشعري ينبئ عن

مفهوم وجداني متميز، وكانت العاطفة الجياشة هي المحرك والدافع لهذه الرحلة الشعرية القاسية كما عبر عن ذلك أحمد سحنون في مقدمة ديوانه يقول :

وكـــل بيـــت صـــيغ لـــم أحبـــه منـــــي الحيـــــاة بـــــدون إتقـــــان

وكان حادي رحلتي ما دجى مـــــن ليـــــل آلامـــــي وأحزانـــــي

وقد أفصح سحنون عن اتجاهه الوجداني من خلال رده على أولئك النقاد الذين اتهموه بالسكوت، فأفصح لهم بأن الشعر وجدان، وإحساس عميق بالرغبة في قول الشعر، إن الشعر لا يقـاس بالكثــرة أو الثرثرة ، وله بواعث لا يعرفها إلا الشاعر نفسه، إن الشاعر إنسان يدركه ضعف الإنسان في الكثير من الأحيان، بل لعله معرض للضعف أكثر من كل إنسان لأنه مرهف الحسن، دقيق الشعور، يقظ الوجدان، إن الشاعر خير له وأجدى عليكم أن يسكت أكثر مما يتكلم وإلا كان كلامه ثرثرة ومعاني مكررة.

ولعل آثار النزعة الوجدانية الرومانسية اتضحت في شعر مبارك جلواح العباسي أكثر من اتضاحها في شعر سحنون الذي كان يغلب عليه أحيانا اتجاهه الإصلاحي المحافظ، فإن مبارك جلواح بحساسيته المرهفة، ظل طوال هذه الفترة يصور المشاعر والأحاسيس الذاتية التي يشعر بها الشاعر الجزائري تحت ضغط ظروف اقتصادية وسياسية ونفسية، وراح يعبر عن هذه الأحاسيس بنغمة حزينة تصور بصـــدق ما يعاني منه هذا الشاعر من ألم حاد، وصراع نفسي، وعلى الرغم من القالب التقليدي الذي كان يصب فيه مشاعره تلك، فإنه ظل يصدر في كل ما كتب عن مفهوم وجداني رومانسي إزاء التجربة الشعرية، وقد عبر عن مفهومه هذا حيث أجاب الذين ينتقدون شعره لغلوه في الذاتية " ...إني ما كنت لأقول الشعر لطلب المحمدة، أو لإرضاء أحد، أو لدرء ساخط وإنما أقوله مني وإلي، وأترنم به لتسلية قلبي من بعض ما يعانيه من الآلام والأوصاب المتراكمة عليه ".

إنه وفي خضم انتشار موجة الرومانسية في الوطن العربي ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية، أخذ هذا الأدب يشتد، ويصل صوته إلى الجزائر، ويجد من الأدباء من يعنى به، ويتأثر به تأثرا قويا، ولم يكن هذا مقتصرا على الشعر وحده، وإنما ظهر ذلك في النقد أيضا، فقد ظهرت في هذه الأثناء نصوص نقدية كثيرة، تنظر إلى الأدب والفن من خلال منظور رومانسي، ولعل أهم تلك النصوص هي التي كتبها أحمد رضا حوحو، يوضح فيها مفهومه إلى الأدب والفن، محللا وضعية الأدب الجزائري، وما هو عليه من تخلف وتبعية .

والنهضة الأدبية والشعرية عند حوحو هي أن لا نستمر في نفخ تلك الجثة الميتة، والسير على غرار تلك الطريقة التقليدية، جمل مرصوصة نسميها مقالات نثر وكلام مقفى نسميه قصائد شعر، أما الروح، والحيوية والابتكار والمذاهب الجديدة في الأدب فكل ذلك لا نلتفت إليه ولا نعنى به.

ونتيجة لهذا الإحساس بقيمة الفرد، ومصير الإنسان في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، تطورت نظرة الشعراء الجزائريين تطورا واضحا فحلت العناية بالمشاعر الذاتية والصدق الفني محل المشاعر الغيرية، وظهر شعر كثير نتيجة هذا الاتجاه الوجداني يمثله بصفة خاصة شباب تلك المرحلة من أمثال عبد الله شريط والطاهر بوشوشي ومحمد الأخضر السائحي، ونحسب أن هؤلاء كانوا أكثر وعيا بخصائص المذهب الرومانسي وأعمق إدراكا لأبعاده الفلسفية والفنية.